أصلهـا ثابت

أصلهـــا ثابت

روايـة

محمد خالد محمد

اسم الكتاب: أصلها ثابت
اسم الكاتب: محمد خالد محمد
تدقيق لغوي: شيرين عابدين
تصميم الغلاف: فارس حسن
الإخراج الفنيّ: جمال عبدالرحيم
الطبعة / الأولى – يناير ٢٠٢٠ م
رقم الإيداع: 2019 / 3697

للنشر والتوزيع
Arabic Library

Arabiclibrary2017@gmail.com
Facebook.com/arabiclibrary2017

جميع الحقوق محفوظة

جميع الحقوق محفوظة للمكتبة العربية للنشر والتوزيع، ولا يجوز استخدام أي من المواد التي يتضمنها هذا الكتاب، أو استنساخها أو نقلها، كليا أو جزئيا، في أي شكل وبأي وسيلة، سواء بطريقة إلكترونية أو آلية، بما في ذلك الاستنساخ الفوتوغرافي، أو التسجيل أو استخدام أي نظام من نظم تخزين المعلومات واسترجاعها، دون الحصول على إذن خطي من الناشر.

إهـداء

- إلى من سعى وتعب وعرق لأنعم بالسكينة والراحة، الذي لم يبخل علي بأي شيئ من أجل دفعي في طريق النجاح والإبداع، الذي بصرني بالصبر على سلم الإرتقاء،

إلى أبي وحبيبي (خالد)

- إلى محيط العطاء ونهر الوفاء، إلى من إحترقت لتنير لي دربي، إلى من حاكت سعادتي بخيوط نسجتها من قلبها،

إلى أمي وحبيبتي (أم محمـد)

- إلى حبيبي وعمري وأخي الأصغر (أحمد) نعيم حياتي، الذي هو في عيني اليمنى ملك متوج، وفي عيني اليسرى دواء من كل علة، إلى أجمل قدر في دنيتي.

(الفصل الأول)

طفولة بائسة

(١)

في منتصف ليلة من ليالي الشتاء البارد، وحينما كنت ممسكاً بهاتفي المحمول أتصفح حسابي الشخصي على (الفيس بوك) كعادتي التي أصبحت إدمان، وكان (أبي و أمي) يغطان في سبات عميق كعادتهما أيضاً حيث كانا ينامان أول الليل، ويقومان قبل الفجر بساعة، فقد كان أبي يردد دوماً (ركعتا الفجر خير من الدنيا وما فيها)،

فجأة اهتز البيت اهتزازاً عنيفاً وحيث أن بيتنا كأغلب بيوت قريتنا من الطين وضعيف في أساسه وجدرانه وسقفه، لم يصبر ليتحمل هذا الزلزال العنيف ولم يقاوم غضب الأرض، فانهار البيت على رؤوسنا جميعاً وتبعه غالب بيوت القرية.

آه آه آه .. كم كانت ليلة سوداء قاسية !!

أردتُ النهوض من تحت أنقاض وركام بيتنا، لكنني لم أتمكن من ذلك فقد أحسست بأثقال رهيبة فوقي، صرت عاجزاً حتى عن تحريك أصابعي وكأنني أُصبت بالشلل التام من رأسي وحتى اخمص قدمي.

ساعات مرت وأنا أسمع صراخ نساء وصياح وبكاء أطفالَ، إلي أن بدأت أسمع أصوات الحجارة والأخشاب والتي يسعى البعض جاهداً إلي إزالتها، شعرت باختناق شديد وكأني أتنفس (من سَمِّ الخياط)، بكيتُ كالأطفال رغم أن عمري (أربعة عشرة) سنة ولكن ماذا عساي أن أفعل سوى ضم صوتي لأصوات الأطفال الذين كنت أسمع بكاءهم وصراخهم.

فجأة تذكرت (أبي و أمي) فصرخت وصرخت لكن صرختي كانت عليلة:أبي، أمي أبي، أمي أبي، أمي

إستمر صوت دوي الناس من حولي وهمتهم في رفع حطام وأنقاض البيت، وكلما مرَّ الوقت اقترب الصوت أكثر حتى سمعت أحدهم يخاطب منْ حوله وأنا بالكاد أفتح عيني:سبحان الله، سبحان الله، سبحان الله إنه لا يزال حي، إنه حي، إنه حي لقد قدر الله له حجرين كبيرين أنقّذه التقاءهما ببعضهما البعض مما صنع له فجوة بينهما.

أخرجني الناس من تحت الأنقاض وهم لا يزالون يتعجبون من كوني لازلت على قيد الحياة، لأنه على ما يبدو أن غالب أهل قريتي (قضوا نحبهم) تحت جدران بيوتهم وفوق أرضهم التي كانت أرواحهم متعلقة بها، وعندما تتعلق الروح بشيء ينمو بينمها حب قد يفضي في نهاية الأمر إلي الموت، كما قال الشاعر العربي الفصيح (عبد الملك الأصمعي) (ومن الحب ما قتل)

****

(٢)

حاولت جاهداً فتح عيني والانتباه أكثر ويا ليتني ما فعلت ...

لقد رأيت بعيني الناس وهم يسحبون أمي وأبي من تحت الأنقاض، وقد غطتها الدماء ولا حراك لهما عليى الإطلاق..

آآآه يا أمي ..... آآآه يا أبي

ليتني أستطيع النهوض إليهما، ليتني أستطيع الكلام معهما، ليتني أستطيع ضمهما إلى صدري، ليتني أستطيع أن أصنع من دماءهما عطراً أحتويه مدى الحياة.

مهما قلت من كلمات فلن تستطيع أن تعبر عن حرقة قلبي على مرارة فقدان أمي و أبي ، لقد اشتقت لأم وأب لن يرجعا أبداً اشتياقاً يفتك بي فتكاً، إن فقدان الأم والأب هو ضياع للجدار الذي كنت أستند إليه، ضياع للسماء التي كانت تهمرك بفيض الحب والعطف والحنان، كم هو مؤلم عليّ أن أشتاق لهما وأنا متيقن بأني لن أرهما مرة أخرى، لقد أظلم العالم من حولي، وانكسر قلبي وعُدت لا أعرف معنى للفرح. وداعاً يا قطعة من قلبي كساها التراب فلم أكن أعي معنى الغياب إلا بعد غيابكما.

(٣)

لم يكن لي من طريق سوى بيت خالي الذي يعمل في مكتب للاستشارات الهندسية والذي كان يسكن في قرية تبعد عن قريتنا حوالي (٢٥) كيلومتر، من أول يوم دخلت فيه بيت خالي وبدأت زوجته بالحرب، حرباً لا هوادة فيها، كانت امرأة مؤذية ظالمة دائماً تحرض خالي عليّ، تختلق المشاكل والفتن ولا تدعنا أبداً نعيش في وئام وسلام، لا تفشل في حيلة إلا ودخلت في حيلة أخرى ومكر جديد تزول منه الجبال، كل ذلك من أجل أن أخرج من بيت خالي كي تخلو لها الأجواء من دون ند ولو كان هذا الند طفلاً مثلي !!

كانت أشرس وأقذر حيلة لها هي محاولة إقناع خالي بإخراجي من المدرسة بحجة أنها مكلفة ودخلهم المادي لن يكفي خاصة وأن خالي له ابن في (العاشرة من عمره) وقد ألحقه خالي بمدرسة خاصة (أهلية) تحتاج ألاف الجنيهات سنوياً، ولكنني تعهدت لخالي بأني لن أكلفه شيء أو أطلب منه شيء وبأني سوف أعمل بعد دوام المدرسة في أي عمل يدر علي دخل مادي.

مضت ثلاثة أعوام وأنا على تلك الحالة مع زوجة خالي، ولكن على ما يبدو أنه قد فاض الكيل بها وقررت استخدام أحط الوسائل التي يمكن أن تفعلها امرأة لشاب في عمري، فقد نهضت من نومي ولم يكن خالي في البيت فدخلت عليّ غرفتي وكان ظاهراً عليها أنها تكمن بداخلها شر ومكر جديد، بدأتْ بالشتم والسب لي ثم همت بي ضرباً على وجهي فأمسكت يدها ودفعتها بقوة فسقطت أرضاً، وللأسف ساعدها ذلك على إكمال مخططها الشيطاني، فراحت تمزق ثيابها وتصرخ بصوت عالي جداً، وكشفت عن شعرها ثم احتضنتني بقوة لم أستطع الفكاك منها وظلت تصرخ وتصرخ، حتى اجتمع الجيران وأهل القرية حولنا.

نصف ساعة وكان خالي موجوداً فقد أتصل به أحد الجيران ليرى المصيبة التي وقعت، وما أن دخل خالي حتى ارتفع نحيبها وصراخها أمامه وأمام كل الجمع الغفير .

– كيف ترضى أن يفعل ابن أختك بي هكذا ؟ ثم خرجت وافترشت الشارع لترى ماذا سيفعل خالي بي ؟ لم يكن بوسع خالي إلا الانصياع لها فقد كان بلا شخصية أمامها، وانهال عليّ ضرباً، ثم اتجه نحو المطبخ وحمل سكيناً

وأقبل عليّ، تيقنت أنه يريد الانتقام مني وقتلي فهربت بسرعة من أمامه وقفزت من شباك الغرفة المطل علي الشارع لأري زوجة خالي تنظر إلي وعلى وجهها ابتسامة خفية فقد حققت مرامها من فعلتها الأخيرة.

****

(الفصل الثاني)

(شعاع من نور)

توجهت نحو غيطان القرية التي كانت مزروعة بالذرة واختفيت عن الأنظار وقد علا صوت بكائي وأنا على هذا الحال، وكانت أسئلة كثيرة تراودني حينها

أين المستقر ؟ .... أين المصير ؟ ..... ماذا ينتظرني ؟

كيف سأكمل تعليمي وأذهب مدرستي، خاصة وأنا في الصف الثالث الثانوي وعلى مشارف الجامعة ؟

كان قلبي يعتصر ألماً وكمداً من سوء حظي الذي يلازمني، رفعت يدي للسماء للشكوى لله والذي كنت أشك بوجوده أصلاً، هذا الشك كان يراودني أحياناً وليس دائماً على الرغم أني كنت أصلي في كثير من الأحيان مع والدي.

رفعت يدي وقلت له: ربي إذا كنت فعلاً قادراً تسمع وترى فأين أنت مما أنا فيه، أين أنت من حالي وضياعي، وإذا كنت كما كانت تقول أمي (أرحم من الأم بولدها) فهل هناك أم تقبل لابنها ما أنا فيه ؟ أين أنت يا

رب ؟ أين أنت يا رب ؟

لم أكمل ندائي حتى شعرت بيد تربت فوق كتفي وسمعت صوتاً يقول لي :ماذا بك يا بني ولماذا أنت هنا تبكي بين الزراعات ؟

إلتفت إليه ورأيته غير أنني لم أستطيع أن (أنبس ببنت شفه) كان الرجل شيخاً وقوراً تشعر بدفء قلبه وتوقد عقله، وكان ذو لحية بيضاء مشذبه متساوية يصاحبها شارب بنفس طولها.

أعاد الرجل سؤاله: لماذا تبكي هنا يا بني ؟ أين أهلك وهل أنت من هذه القرية ؟

أحسست نحوه براحة نفسية وطمأنينة ولعل هذا بسبب ابتسامته التي لا تفارق محياه وبساطة كلامة رغم أنه يبدو للوهلة الأولي كبير بهيبته.

فأجبته: أنا لست من هذه القرية لكنني من قرية مجاورة وكنت أعيش منذ فترة في بيت خالي في هذه القرية.

- وعلام البكاء إذن وأنت لست صغيراً ومؤكد هناك أمر جلل ؟

- نعم .. لقد حاول خالي قتلي بسبب زوجته.

- وهل فعلت أمراً ما دفعه لذلك ؟

سردت له ما حدث فسألني عن اسم خالي ومهنته وعنوانه، وحينما أجبته عرفه جيداً ثم قال:أنا أصدقك يا بني لأن زوجة خالك بالفعل امرأة كثيرة المشاكل والمكائد وتدابير السوء وأغلب أهل القرية يعرف ذلك.

سألني عن وجهتي القادمة وما إذا كانت عندي نية في العودة لبيت خالي وأنه على استعداد للتدخل والتوسط بيننا لحل المشكلة.

فرفضت ذلك بشدة وأخبرته بأنني لن أعود هناك ثانية ولو كانت وجهتي القادمة هي القبر،

ابتسم الرجل ابتسامته المعهودة وكأنها لغة لا تحتاج لتفسير لكنها مفتاح عبور لقلبي وجلاءٌ لهمي وحزني، ثم سألني:هل لك أقارب هنا أو في أي مكان أخر في البلد ؟

- لا بعد وفاة والدي تحت ركام منزلنا لم يكن لي بعدهما سوى خالي والآن لا أعرف لي قريباً.

- طيب لا تقلق وإن شاء الله خير

- خير ! وأي خير في هذا.. طفل مثلي بلا بيت، بلا أب، بلا أم وتقول لي خير

- يا بني أنا أعمل إمام وخطيب في أحد مساجد المدينة ولي ابن يعمل طبيباً في احدي الدول الأفريقية وشقته في المدينة لا يوجد بها أحد، فقد سافرت معه زوجته وأولاده، ما رأيك أن تسكن هناك خاصة وأن أبني لن يعود قبل ٥ سنوات ؟.

****

(٢)

كدت أطير من الفرح حين سمعت منه ذلك وقلت في نفسي باستغراب: هل يكون (الله) هو الذي رتب الأحداث هكذا لألقى هذا الرجل في وسط هذه الزراعات ؟؟ هل يكون هو (الله) الذي استجاب لي رغم أني لم أكن أتوجه له من قبل ؟

هل يكون هو (الله) الذي ساق لي هذا الرجل ليكون عوناً لي وظهراً رغم أنني أصلاً كنت منكراً لوجوده ؟

نعم لم أكن أعرف ربي بل كنت شاكاً بوجوده أصلاً، لم أكن أعرف أنه بالفعل يعلم (خائنة الأعين وما تخفي الصدور)، لم أكن أعرف بأنه يسمع ويري، نعم كنت أسمع ذلك من أبي وأمي ومعلمي مدرستي، لكنني كنت أسمع فقط سماع لا يتخطى أذني ولم يصل يوماً قلبي.

بلا تردد أمسكت يد الرجل ولأول مرة منذ سنوات أشعر بدفء يد ذكرتني بيد أبي وقلت له بلا أي حياء:إذن لنذهب يا ..

- اسمي والدك الشيخ (طاهر) وكنيتي (أبو أحمد).

- لنذهب يا شيخ طاهر أو كما تحب (أبو أحمد)

(٣)

انطلقنا سيرا علي الأقدام عبر الزراعات ووجهتنا الشارع الرئيسي وأثناء سيرنا وجدت نفسي أسأل الشيخ طاهر (أبو أحمد): شيخ (طاهر) من الذي جاء بك إلي نفس المكان الذي كنت فيه في نفس الوقت رغم حرارة الجو.

أجابني الرجل وعلى مُحياة أثر الثقة الكبيرة بما سيقول: الله سبحانه وتعالى.

قلت له بلا مواربة أو تردد:أنا أصلا يراودني الشك أحيانا بوجود الله

توقف الشيخ (طاهر) عن المشي ورمقني بعينه وقبل أن يتفوه بكلمة باغته قائلا:شيخ (طاهر) لقد قلت لك ما في قلبي وأرجو ألا تغضب مني.

- لن أغضب منك ولكن قل لي هل تفضفض معي فقط أم تريد مني أن أثبت لك وجود الله ؟

- نعم أريد ذلك خاصة وأن قناعتي بعدم وجود الله متمكنة مني وأصبحت أري أن الصدفة هي من شكلت الكون.

- حسنا يا بني لنكمل حديثنا بعد أن نتريث قليلا على شاطئ الترعة القريبة هناك.

كان أهل القرية يطلقون على ممر النيل هذا (ترعة) رغم أنه كان كبير نسبيا مقارنة بالممرات المائية الصغيرة والمعروفة باسم (الترع)، كان هذا الممر الكبير من تراث الأسرة العلوية فقد بناه الخديوي توفيق أوائل عام ١٨٨٧م وإليه نسب اسم الممر فصار (الرياح التوفيقي) وكان لا يعرف ذلك سوى القليل ممن نالوا قسطا ولو يسيرا من التعليم خلافا لغالب أهل القرية الذين فضلوا (فلاحة الأرض) وتربية المواشي على دخول المدارس.

جلسنا في ظل شجرة كبيرة على ضفاف (الرياح التوفيقي) وأخذنا قسطا من الراحة ثم طلبت من الشيخ (طاهر) إكمال الحديث، فقال:يا بني إن الإنسان لم يخلق نفسه ولا الأرض التي تقله ولا السماء التي تظله الكون كله صغيره وكبيره محكوم بسنن وقوانين غاية في الدقة والنظام وما وصل له الإنسان من علم كلها تبرهن بالدلالة على وجود الله.

- ولما لا تكون الصدفة وحدها هي السبب.

- وهل الصدفة هي التي خلقت وهيمنت على حركة الكون ونظامه وسكونه ؟ هل الصدفة هي من تسمك بالأجرام السماوية أن تزول أو تتوقف ؟

وقبل أن أرد عليه قاطعني قائلا:سوف أذهب قليلا يا بني ثم أعود انتظرني هنا !

استغربت ذهاب الرجل المفاجئ وانتابني القلق وتملكني الخوف من تصرفه، شغلت نفسي بالتطلع للمياه والأشجار على ضفتي (الفرع) والورود الزاهية من حولي.

****

(٤)

ظللت على تلك الحالة حوالي (الساعة) مما جعلني أقلق من تأخر الشيخ (طاهر) وصرت أضرب أخماس في أسداس حتى عاد إلي فسألته متلهفا: شيخ (طاهر) لقد قلقت جدا عليك فلماذا تأخرت ؟

أجابني بهدوئه المعتاد:كنت سأعود إليك سريعا لكن حدث أمر عجيب !

رأيت طفلا سقط في الماء وكاد أن يغرق غير أن شجرة كبيرة من الأشجار الموجودة طاحت أرضا، ومن باب الصدفة الغريبة وجدت أخشاب الشجرة تتقطع من تلقاء نفسها وتصطف بشكل عجيب لتشكل قارب صغير ! ومن قبيل الصدفة أيضا ترتفع مسامير كانت متناثرة لتقف فوق الأخشاب وإذا بفرع شجرة أخري يطيح أرضا مشكلا مطرقة ضخمة، ومن باب الصدفة سقطت المطرقة فوق مسمار فدقته، ثم ارتفعت فوق مسمار آخر وهكذا دواليك حتي دق كل المسامير في أخشاب القارب ثم

هبت رياح فحملت القارب لتسقطه في المياه، قيتعلق بها الصبي ويركبه ليعود به إلى الشاطئ، وسط دهشة كل الحاضرين وذهولهم.

استغربت من كلام الشيخ (طاهر)، بل ووصل الأمر أنني شككت في سلامة عقله وقلت له:هل من المعقول ما حدث ؟؟

- هل معقول أن الصدفة هي من قصت الأخشاب ونظمتها ودقت المسامير وكونت قارب صغير ؟

- هل تستنكر ذلك يا بني وتكذبني.

- الحقيقة نعم ولا تغضب مني.

- وهل تستطيع تصديق بأن الكون وما فيه من سماء ونجوم وكواكب وأقمار وشموس ونيازك وشهب قد كونتها (الصدفة) من نفسها دون وجود مبدع فاطر عظيم حكيم لها ؟

سكتُ برهة وعلمت حينها علة تأخره وظللت صامتا ناظرا إليه عساه يكمل حديثه والذي بالفعل جذبني له فقال:بني هيا ننهض لنكمل مسيرنا حتي نصل إلى كوبري القرية لنعبره للضفة الأخرى، حيث الطريق السريع لنستقل سيارة إلي بيتك الجديد في المدينة.

(٥)

وافقت على كلامه لكن بشرط أن يكمل حديثه أثناء المسير فوافق.

بعد خطوات معدودة نظر إلي الشيخ قائلا:هل تعلم أن الإنسان إذا ما قورن خلقه بالسماوات والمجرات تجده ضعيف وبسيط.

اعترضت بشدة عليه وقلت له:ولماذا تدعي أن الإنسان ضعيف وقد وصل بعلمه إلى تلك المجرات والكواكب والنجوم الأخرى

- هو لم يصل بعلمه بل بالعلم الذي علمه إياه رب العالمين وقد قال في محكم تنزيله: (لخلق السماوات والأرض أكبر من خلق الناس ولكن أكثر الناس لا يعلمون) (آية ٥٧ سورة غافر)

- هل درست في الفيزياء يا بني مفهوم السنة الضوئية ؟

- نعم درسته في أكثر من سنة دراسية وتعمقت فيه في المرحلة الثانوية.

- هل تعرف أن ضوء النجوم الذي يصل للأرض قد انبعث وانطلق من مصدره قبل مئات وربما آلاف السنين حتى وصل إلينا.

- آه أعلم ذلك فقد درسناه وأحفظه جيدا.

وهل تعلم أن المسافات بين الأجرام السماوية هائلة وتبعد عن بعضها ملايين السنوات الضوئية، وبما أن سرعة الضوء ٣٠٠ ألف كيلومتر/ ثانية فبهذه السرعة فإن الضوء يقطع ١٨ مليون كيلومتر في الدقيقة الواحدة وهذه تسمي الدقيقة الضوئية، وتبلغ المسافة التي يقطعها الضوء في سنة واحدة تبلغ ٩.٤٦١ تريليون كيلومتر. أتدري ما معنى ذلك ؟

- لا.

- معنى ذلك أنه لو انطلق الضوء من مجرتنا بسرعته المعتادة (٣٠٠.٠٠٠) كيلو متر في الثانية فإنه سوف يظل يسير ويسير ويسير ألف مليون سنة من سنين الدنيا حتي يصل إلي مجرة أخرى.

تعجبت جدا من دقة الشيخ طاهر واتقانه كل هذه المصطلحات والمفاهيم العلمية رغم أنه (إمام وخطيب) وعلي ما يبدوا أن الرجل قد قرأ أفكاري فقال لي:لعلك يا بني تتساءل في قرارة نفسك أنى لم بمعرفة كل ذلك ؟

- الحقيقة نعم ومتعجب جدا.

- يا بني أنا في الأصل حاصل على بكالوريوس علوم قسم (الفيزياء) من جامعة المنصورة، وكنت من المتفوقين بفضل الله، وبعد التخرج ولأنني من أسرة تعشق العلوم الشرعية فقد كان والدي (مأذون شرعي للقرية)، فقد التحقت بكلية الشريعة والقانون وتخرجت منها بتقدير (ممتاز) مما أهلني للعمل إماما لأحد أكبر مساجد المدينة ووضع الله لي القبول بين الناس، فنجد المئات يفدون إلي مسجدي كل جمعة من كل فج عميق بالمدينة.

لقد كان هذا النقاش مع الشيخ (طاهر أبو أحمد) أول الغيث واللبنة الأولي لي لأول قدم أضعها على طريق معرفة ربي، ربما لم أقتنع حينها بذلك، ولكن كان ذلك حجرا حرك الماء الراكد بداخلي، نظرت للشيخ نظرة عميقة وأنا أفكر في كل ما قاله وفي أثناء ذلك اقتربت سيارة أجرة منا يصاحبها نداء سائقها (المركز، المركز، المركز) وهذا يعني بلغة أهل القرية المدينة، فقال الشيخ: هيا يا بني إلى بيتك الجديد وحياتك الجديدة،

****

(الفصل الثالث)
(متي يدق قلبي)

قضيت شهراً في بيت الشيخ (طاهر أبو أحمد) لم أجد فيه إلا كل حب منه، كان يأتيني بصورة يومية والإبتسامة أبداً لم تفارقة، ودوماً يلاطفني بحسن حديثه ، وكان يحضر معه دائما ما لذ وطاب من الأطعمة والفواكة وكأنني ابنه تماماً ، وكان دائم الحضور للمدرسة لمتابعتي خاصة وقد تبقى أيام قليلة على امتحانات نهاية العام ، كنت أخجل منه وهو يترك لي كل مرة ما تيسر له من النقود وكنت كلما رفضت رد قائلاً : يا سيدي ابقي ردها لما تتخرج وتشتغل بإذن الله .

وها قد مر عامان على وجودي في بيت الشيخ (طاهر) ومعرفتي به (عامان) غمرني فيهما الرجل بكل مشاعر الحب ، كان النور الذي يضئ حياتي والنبع الذي ارتويت منه حناناً ، كنت أشير إليه بالبنان وأفتخر به بين كل أقراني ، كان قمراً أضاء لي عتمة ليلي ، كان دائم التردد علي والسؤال عن دراستي الجامعية فأنا الآن في كلية الهندسة العام الثاني ، لم يستمر الحال

هكذا، والدنيا دوّارة بطبيعتها والأيام دول ، ففي أحد الأيام أخبرني الشيخ بأن خالي قد أصابه المرض الفتاك (السرطان) وهو الآن قعيد الفراش وحيداً لا أحد معه ، فقد تركته زوجته ورفعت عليه قضية خُلع وانفصلت عنه بعدما استولت على ما يملك، نظرت للشيخ ففهم ما أعنيه وقال: هذا خالك ويجب عليك أن ترعاه ليس من أجله بل من أجل المرحومة أمك.

تركت كل شئ وعدت إلي قرية خالي ، فوجدته بأسوء ما يكون وحين دخلت بيته غمرتني روائح كريهة فقد كان طريح فراشة وأصابه القرح والتقيحات الجلدية، كانت بعض أنّاته نصف مكتومة وبعضها الأخر متقطعاً، دخلت غرفته فلمّا رآني دمعت عيناه وأجهش بالبكاء وإنهالت دموعه على خدية ثم اعترته رجفة هائلة وارتعشت أوصالة وارتجفت شفتاه وأخذ يلتقط أنفاسة بصعوبة وعناء ثم حدق في قائلاً: (سامحني يا خالد) ربت علي كتفيه ثم خلعت ملابسه من على بدنه فسقطت منها ديدان وحشرات قميئة، وضعت ملابسة في ماء لغسلها وكانت عفنه جداً كأن الماء لم يصلها منذ عقود.

(٢)

بقيت شهراً أرعى خالي وكان الشيخ طاهر يأتيني يومياً وكعادته يساعدني بالمال والعطايا لمراعاة خالي، استحيت جداً منه وقررت الذهاب لكل أقارب والدتي ليقفوا مع خالي في مرضه، للأسف لم أجد منهم من يستقبلني بل ووصل الأمر أن بعضهم نصحني بتركه قائلاً (شوف حياتك وسيبك منه ، وافتكر اللي عملوا فيك قبل كده) فقدت الأمل تماما وعادت لي هواجسي القديمة.

أين الله إذا كان موجوداً حتى أذهب إليه وأستعين به ليساعدني وفي تلك اللحظة كان الباب يطرق وإذا بالشيخ (طاهر) يدخل علي فعاجلته بقولي: أين هو الله الذي علي الاستعانة به ؟

لم يغضب من كلامي وصمت ثواني ثم قال:الله تعالي موجود في كل زمان ومكان وهو معنا حيثما كنا، هو في كل مكان ولا يحويه مكان ولا زمان.

- يا شيخ طاهر حيرتني ، هل الله في السماء أم الأرض أم على جرم سماوي آخر ؟؟

- هو في كل مكان ولا يكون في مكان أقرب من مكان لأنة خالق المكان والزمان.

- إذن هل هو معنا الآن يسمعنا ؟

- نعم ، هو كذلك بكل تأكيد

- كيف ذلك ونحن لا نراه

- سبحانه (لا تدركه الأبصار وهو يدرك الأبصار وهو اللطيف الخبير) سورة الأنعام آية ١٠٣

- إذن لماذا لا يبدو لنا لنراه ونصدق وجوده ، هل هو غير قادر على ذلك ؟!

- قادر علي كل شئ لكن نحن من لا نقدر يا خالد

- نحن نرى كل شئ وأنا أؤمن فقط بما أرى وما لا أراه لا أؤمن به.

نظر إلي ثم تبسم وقال لي: هل تعلم يا خالد القصة الشهيرة لطالب الجامعة الذي كان لا يؤمن بالله ويوماً دخل مدرج الجامعة وأمام زملائه قال

لهم:هل تروني؟ قالوا نعم ، قال إذن أنا موجود. هل ترون المدرجات؟ قالوا نعم، إذن هي موجودة، هل ترون الباب؟ قالوا نعم .. إذن هو موجود

ثم سكت برهة وقال: وهل ترون الله ؟ قالوا لا قال إذن الله غير موجود حينها وقفت زميلة له وردت عليه قائلة : هل ترى عقلك؟ قال لا، ثم نظرت لباقي زملائها قائلة هل ترون عقله ؟ قالوا لا قالت إذن أنت مجنون ، فضحك كل من كان في قاعة التدريس

- أعجبني مثال الرجل الذي كان فعلاً شديد الإقناع ويبدو أن الشيخ قد فهم ذلك فأكمل قائلاً: يا خالد لو جئنا بشخص أُمّي لا يعرف القراءة ولا الكتابة وأعطيناه ورقة وقلم وطلبنا منه كتابة كلمة ما ولتكن (مدينة) هل يستطيع ؟

- لا طبعا مستحيل.

- طيب ولو طلبنا منه كلمة أصغر قليلاً ولتكن (بعد) هل يقدر ؟؟

- مستحيل يا شيخ ولو حتى طلبنا منه حرف واحد فقط !

- طيب : ما رأيك لو وضعنا أمامه بطاقات كل بطاقة عليها حرف أبجدي من حروف اللغة العربية فكم بطاقة سنضع ؟

– ٢٨ بطاقة ثم تبسمت قائلا هل تختبرني يا شيخ طاهر ؟

ضحك الشيخ وقال:آه، ممكن كلية الهندسة تنسيك اللغة العربيةثم أردف قائلاً:لو وضعنا أمام هذا الشخص الأميّ ٢٨ بطاقة بكل بطاقة حرف من الحروف ليكتب مثلاً كلمة (بعد) ثم تركناه ساعة ليحاول تقليد الحروف ، أتدري ماذا سيحدث ؟

– ماذا ؟

– هناك ٣ حروف ب ، ع ، د إحتمال كتابة الباء (ب) هو (١ : ٢٨) ، والحرف التالي (ع) أيضاً (١ : ٢٨) ، والحرف الثالث أيضاً (د) (١ : ٢٨) يعني لو ضربنا (١ : ٢٨) × (١ : ٢٨) × (١ : ٢٨) الناتج تقريبا = صفر لأنه سيعطيك كسر عشري صغير جداً بقيمته.

****

(٣)

تلذذت بحديثي هذا معه خاصة استخدامه للهندسة والرياضيات فقد كنت من عشاقها وطلبت منه مثال آخر ، فرد قائلاً :هيا ندخل نطمئن على خالك ..

دخلنا الغرفة فإذا بخالي نائماً وكأنه يأخذ قسطاً من الراحة ليعاود بعدها مقاومة الآم (السرطان)

خرجنا لصالون البيت، فأستأنف الشيخ طاهر حديثه قائلاً :يا خالد أنت تحمل معك جوالاً تكتب عليه وترسل رسائل لأصدقائك منه وتسمع منه أصدقائك حينما تهاتفهم أليس كذلك ؟؟

- نعم

- إذن أجبني هل تشاهد بعينيك موجات الهاتف أو الاشارات الصوتية والضوئية التي تنتقل في الهواء؟

- لا طبعاً

- وهل أنت مؤمن بوجود تلك الموجات والإشارات ؟

- نعم بكل تأكيد

- أستغرب منك يا خالد تؤمن بتلك الموجات رغم أنك لا تراها وهي من صنع البشر ، ولا تؤمن بوجود رب البشر الذي علم وهدي الإنسان لصنع تلك الإبداعات واستأنف حديثه قائلا: كونك لا تستطيع رؤية تلك الأمواج إذن العجز في بصرك وباقي حواسك ولبس في تلك الموجات والإشارات لأنها موجودة رغم عدم رؤيتك لها،

- وما علاقة ذلك بالله ؟

- الله موجود لكن لا تدركه أبصارنا وذلك لعجزها عن ذلك.

- إذن صف لي (الله) حتى أفكر فيه وأستحضره في عقلي وخيالي وأنا أدعوه.

ضحك الشيخ طاهر بهدوء ثم قال لي:تحديداً هذا السؤال لن أجيبك عليه

شعرت بأنني غلبته لأول مرة فضحكت بصوت عالي قائلاً له : أنت لا تستطيع أن تجيبني لقد فزت عليك

- لسنا في معركة يا بني كلن إجابة هذا السؤال لن يكون الآن، قريباً سأجيبك عنه وأعدك بذلك إن شاء الله.

تملكّني طوال اليوم كلام الشيخ حتى وأنا في الكليةفي اليوم التالي، ظللت أفكر في حججة القوية الثابتة، عدت من الجامعة وبمجرد دخولي منزل خالي شممت رائحة غريبة وكانت للأسف رائحة الموت فقد رأيت خالي مُلقي علي أرض غرفته وقد فارق الحياة، صرخت بصوت عالي ليتجمع الجيران بالمنزل وسط دهشتي وتساؤلي المستمر: أيـــــن الله ؟؟

تحمل الشيخ (طاهر) تكاليف الدفن ومراسم العزاء ليحملني أفضالاً على أفضاله.

عدت للمنزل لأجد زوجة خالي وأبنها فيه فنظرت إلي وقالت بتهديد: لو جيت هنا تاني هبلغ الشرطة.

****

(٤)

خرجت من البيت، بل ومن القرية كلها ولم يكن أمامي وجهة سوى منزل الشيخ (طاهر) بالمدينة، ذهبت للمدينة سيراً علي الأقدام رغم بعد المسافة وبرودة الشتاء لكنني لم أشعر بتعب خطواتي، وصلت البيت ودخلت ولا أدري ما السبب الذي دفعني للجلوس في بلكونة البيت رغم برودة الجو الشديد، وجدت نفسي أنظر للسماء قائلاً: أين هو الله

حتى هذه اللحظة لم يكن لدي أي توجه إلى الله ولم يكن قلبي مرتبط به حتى أدعوه أو أشكو له، جلست في زاوية من البلكونة أبكي على حالي، أحسست بانقطاع كل السبل ، وتبخر لدي كل أمل لماذا هذه الهواجس لا تفارقني ؟

ظللت هكذا إلى أن أخذتني سِنة من النوم، فدخلت غرفتي وأخلدت إلى النوم.

وفي صباح اليوم التالي وكان يوم (جمعة) استيقظت على طرقات الباب فإذا بالشيخ طاهر وقد أحضر معه (الفطور)، غسلت وجهي بيدي

لأمسح عنه ما تبقى من آثار النوم وفي أثناء تناولنا الإفطار قال الشيخ:هل تعلم عدد الخلايا العصبية في دماغ الإنسان.

- الحقيقة لا

- عدد الخلايا العصبية في دماغ الإنسان حوالي ٨٦ مليار خلية عصبية بأشكال وأحجام مختلفة تتوزع في ٦٤ منطقة في الدماغ.

نظرت إليه بشغف وكأنني أهم به لإكمال حديثه فأردف قائلاً:هذه الخلايا العصبية ثابتة العدد لا تتغير ولا تتكاثر أو تنقسم مثل باقي خلايا الجسم أتدري لماذا؟

- لماذا ؟

- لأنها لو انقسمت أو تبدلت أو تكاثرت فإن الإنسان حينها سينسى كل ما تعلمه كل حوالي ٦ أشهر، كل ما يعرفه من لغات أو مفاهيم سينساه كلما تبدلت تلك الخلايا حينها لن يكون هناك أي عالم أو حضارة على وجه الأرض هل هذا الإبداع يا خالد من قبيل الصدفة؟

وقبل أن أجيب سألني قائلاً:لو تعرض جسمك لخطر ما مثلاً تعرضت رجلك أو يديك للنار ماذا ستفعل ؟

- سأسحب يدي على الفور بدون تفكير !!

- سحبك ليدك يا خالد يسمى علمياً الفعل المنعكس، حيث تقوم بها لا إرادياً كسلوك غريزي تفادياً للخطر حيث أنه رد فعل لا إرادي يقوم به النخاع الشوكي، عندما تصل إليه أخبار هذا الخطر الداهم عليك من نار أو غيره عبر ألياف فإن النخاع لا يرسل رسالة للمخ لينتظر منه الرد على تلك الرسالة ، بل إن النخاع نفسه يتصرف تلقائياً حيث يرسل أمراً إلى عضلات المنقطة المهددة بالخطر لكي تنكمش وتتقلص بآلية معينة كي تقي الجسم من الخطر الداهم، ثم بعد كل ذلك ترسل نتائج تلك العملية كاملة إلى (المخ) ليصدق عليها أو يقوم بتعديلها.

نظرت إليه مندهشاً جداً من كلامه فأردف قائلاً: لقد قدّر علماء الطب عدد الإشارات التي يتلقاها الجهاز العصبي كل ثانية حوالي (١٠٠ مليون إشارة) لكن ما يصدر إلي مخ الإنسان فقط حوالي (١٠٠ إشارة)، ما يعني من كل مليون يصل للمخ إشارة واحدة فقط، أتدري لماذا ؟

- لماذا يا شيخ طاهر

- حتي لا ينشغل المخ بالإشارات التي بلا قيمة أو التوافه الحسية بل يركز فقط على الأمور والإشارات الخطيرة !!!!

يا خالد من الذي صنع وأبدع كل هذا ؟ من الذي رتب الخلايا بهذه الكيفية، إن العلماء يسمون ذلك الفعل المنعكس ، وأنا أقول إنه (قدرة الله ولطفه)، لأنه بحكمته لو ترك للإنسان هذه المهمة، فقل علي الدنيا السلام.

ثم سكت الشيخ لثواني وقال هيا يا بني لقد داهمنا الوقت واقترب موعد صلاة الجمعة.

في الحقيقة لم أكن من المحافظين على الصلاة إلا في بعض المرات، كنت أؤديها حرجاً من الشيخ طاهر، لكنها كانت لا تمثل لي سوى حركات أسويها من قيام، ركوع، سجود، لكن لم أذق حلاوتها يوماً ما، ربما لأني حتى هذه اللحظة ينتابني الشك في وجود الرب الذي أؤدي له تلك الصلاة.

إعتلى الشيخ طاهر المنبر وبدأ في حديثه وكأن خطبته كانت موجهة لي أنا فقط، وبعد أن حمد الله وشهد بوحدانيته وأثني على رسوله صل الله عليه وسلم، بدأ بشواهد عظمة الله فكان مما قال : على جميعنا النظر في نشأة الخلق من نطفة، ثم علقة، ثم مضغة، ثم عظاماً، فكسيت العظام لحماً، حتى صرت

بشراً كامل الأعضاء الظاهر منها والباطن أما يضطرك هذا التفكر إلي الإعتراف بالرب القادر على كل شيء، وأحاط علمه كل شيء، فلو إجتمع الخلق كلهم علي النطفة التي جعلها الله مبدأ خلق الإنسان علي أن ينقلوها في تلك الأطوار أو يحفظوها في ذلك القرار المكين ويجعلوا لها سمعاً وبصراً ويركبوها هذا التركيب العظيم والترتيب المحكم، فهل في اقتدارهم وعلومهم أنو يصلوا لذلك ؟

(أفرأيتم ما تمنون، أأنتم تخلقونه أم نحن الخالقون) الواقعة آية ٥٨،٥٩

– من المعلوم عند جميع الناس العقلاء أن من لا يملك مالا لا يسأله أحد مال، وأن الأميّ الجاهل لا يسأله أحد علم، لأن القاعدة المعروفة لدينا تقول فاقد الشيء لا يعطيه فمن يزعم أن الطبيعة هي من خلقته فقد خالف العقل وحارب الحق، فالكون بأسره يشهد بحكمة خالقه وأن له رب عظيم، واحد أحد، رازق حافظ ، والطبيعة الصماء لا تملك مثقال ذرة من ذلك .

ومن الغريب حقاً أن كل من أدعوا أن الطبيعة هي الخالقه، فقد خالف مقتضي العقول جميعها، فالطبيعة لا تملك عقلاً وهم يملكون، لا تملك منطقاً وهم يملكون، لا تملك خبرة وهم يملكون، لا تملك علماً وهم يملكون. { يَا أَيُّهَا النَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فَاسْتَمِعُوا لَهُ ۚ إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ لَن يَخْلُقُوا ذُبَابًا وَلَوِ اجْتَمَعُوا لَهُ ۖ وَإِن يَسْلُبْهُمُ الذُّبَابُ شَيْئًا لَّا يَسْتَنقِذُوهُ مِنْهُ ۚ ضَعُفَ الطَّالِبُ وَالْمَطْلُوبُ (الحج : أية٧٣)، فالخالق لابد أن يكون له الكمال المطلق حيث يكون:

-مستغنياً عن غيره، أولا ليس له بداية، آخراً ليس له نهاية، لا يحده زمانلا يحده مكان، قادراً على كل شيء

- عالماً بكل شيء، ما كان وما يكون وما لم يكن لو كان كيف يكون

- إن الفطرة السليمة والعقول السوية تشهد أنه ومنذ خُلق الكون لم يحدث حادث من غير سبب، ولم يوجد شيئاً من غير موجد، حتي أصبح ذلك واقع يقره كل ذي عقل، ولا يأبى الإقرار به إلا عقل مفقود أو مريض معتوه أو عقل قاصر كطفل صغير يكسر الكوب ثم يدعي أنه كُسر من تلقاء نفسه لذلك أدرك الأعرابي هذه السببية عندنا سئل: ما الدليل علي وجود

الله؟ فقال: سبحان الله، إن البعرة تدل علي البعير، والأثر يدل علي المسير، فسماء ذات أبراج ، وأرض ذات فجاج ، وبحار ذات أمواج، ليل داج ونهار ساج ، ألا يدل ذلك على وجود اللطيف الخبير ؟ فكل مخلوق لابد له من خالق وكل أثر لابد له من مؤثر ، وكل حدث لابد له من محدث.

- في عالم إبداع الخلق هناك ظواهر هامة مثل ظاهرة الأزواج، فالذرة مثلا تركيبها يشمل بروتونات موجبة والكترونات سالبة، فما من جسيم سالب إلا ويقابله جسيم أخر موجب ، حتى إن المادة التي نعرفها نفسها افترض العلماء وجود مادة أخري مضادة لها، إذا ما إلتقيا فإنهما حرران الطاقة ويفنيان بعضهما، وفي عالم النبات يتكرر الأمر أيضاً فدائما نحد المذكر يقابله المؤنث ، حتى بعض أنواع النباتات التي ليس لها مذكر ومؤنث، نجد أن النبته نفسها تحوي أجزاء مذكرة وأخري مؤنثة وهو مصداقاً لقول العزيز { لَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ مَهْدًا وَسَلَكَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا وَأَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِّن نَّبَاتٍ شَتَّىٰ } (سورة طه : آية ٥٣) حتي في علم الحساب هناك أعداد موجبة وأخري تقابلها سالبة وفي عالم البحار والأنهار هناك ماء عذب يقابله ماء مالح وهذا ما ذكره الله { وَمَا يَسْتَوِي الْبَحْرَانِ

هُذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ سَائِغٌ شَرَابُهُ وَهُذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ ۖ وَمِن كُلٍّ تَأْكُلُونَ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُونَ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا ۖ وَتَرَى الْفُلْكَ فِيهِ مَوَاخِرَ لِتَبْتَغُوا مِن فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ } (سورة فاطر : الآية ١٢) حتى أن الماء نفسه مركب من جزأين موجب وسالب (H2O) ذرة أكسجين سالبة ، وذرتي هيدروجين موجبة، كل هذا تصديقاً لقوله في كتابه المحكم { وَالَّذِي خَلَقَ الْأَزْوَاجَ كُلَّهَا وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ الْفُلْكِ وَالْأَنْعَامِ مَا تَرْكَبُونَ } (سورة الزخرف : آية ١٢)

- هل بعج كل ذلك يأتي البعض من الملحدين ليزعم أن جميع الأشياء والمخلوقات والفضاء وكل الكون تم تكوينها بطريق الصدفة والمقابلة وليس بطريق الإرادة والقصد والتدبير، هل لهؤلاء عقول ، ولو كان لهم فليجيبونا إذن :كم أين حصل لهذا العالم هذا النظام العجيب الحكيم؟

كيف اجتمعت أجزاء الكون علي اختلاف أشكالها وتباين مواردها وبقيت حتي الآن علي تآلفها؟

ثم كيف تتجدد المرة بعد المرة ؟

إن مثل هؤلاء الأفاقين كمثل من وضع حروف الهجاء: أ، ب، ت.. في صندوق ثم جعل يحركه طمعاً من تلقاء نفسها مكونة كتاب دقيق في مجال الطب أو قصيدة بليغة، بالله عليكم أليس ذلك جنون وسفه مبين؟

****

(الفصل الرابع)
(وفقدت قلبي)

ومرت السنوات وبفضل الله أصبحت صاحب شركة هندسية كبرى خاصة بلوازم السيارات، شركة من الشركات المستوردة والموزعة للسيارات وبعض المعادن، كما أصبحت أملك عائلة كباقي الناس، ورزقني الله بولد شغل كل حياتي أسميته حمزة ، صحيح خرجت من ظلمة العوز والفقر لكنني حينها لم أكن خرجت بعد من ظلمات الشك وضعف الإيمان وللأسف بقيت الشكوك تراودني بين الحين والآخر ولم أعرف ربي إلا بمقدار ما عرفني به الشيخ (طاهر أبو أحمد)، فقد سافر لولده منذ أعوام، فإنطفأت الشمعة التي كان قد أوقدها الشيخ لي، وظللت أنتظره عساه يعود ليوقدها لي من جديد ، يعود ليطرد لي عالماً من الظلمات، ألجأ إليه ليسمع شكواي وحيرتي، أحتمي به لينير لي درب حياتي لا أدري كيف أسرد لكم حالي يوم أن هاتفتني زوجتي لتخبرني بأمر جلل هز كل وجداني، خبر جعلني خافق القلب ضيق الصدر .(كأنما أصّعد في السماء)

قالت لي زوجتي وهي تصيح كالأطفال:الحقني يا خالد.. لقد خطف حمزة اليوم من أمام البيت.

آآه يا ليتني مت قبل هذا، ويا ليت السماء قد أطبقت على الأرض ولم يأتيني خبر كهذا يوماً.

هدأت لحظات ، ثم جلست على الأرض واضعاً رأسي بين رجلي ، تنساب من عيني دموع على خدي علها تطفئ غليان بركان أب مكلوم على ضياع إبنه ، حاولت التماسك والسيطرة على نفسي لعل عقلي يعود إلى توازنه وأقدر أفكر في القادم وماذا سأفعل، انطلقت إلي البيت، وحين وصولي لم أجد شيء غريب ، كل أهل المنطقة مشغولون بأعمالهم، حتى الجيران كُلٌّ في همه ودنياه !! دخلت بيتي وبمجرد أن فتحت الباب عاجلتني زوجتي بالبكاء والصراخ ، بصعوبة بالغة قمت بتهدئتها طالباً منها شرح ما حدث ! كانت مع كل كلمة تسيل منها الدمعات وتحرقها العبرات ، ويختنق صوتها فلا أكاد أسمع لها حساً.

هدأت من ورعتها حتى تمكنت من معرفة ما حدث، وعلمت منها ما كنت أريد أن أعلمه، مرت الأيام عليّ بنهارها القاسي ولياليها الموحشة ولم يعد للحياة لون أو طعم بفراق (حمزة) ، تعبت وأنهكت في البحث دون جدوى ، كان كل همي هو الوصول لخيط أو طاقة نور أسير في دربها علّي أصل لمبتغاي.

يوماً عدت من عملي منكسراً كعادتي منذ فقدت ولدي وأخبرت زوجتي أنه لا أمل على ما يبدو في العثور عليه فنظرت إلي متضجرة وقالت:

– ندعو الله ليل نهار.

فقلت في نفسي (الله) لقد دعوته مراراً وتكراراً ولا أعلم لماذا يفعل بي هكذا ، ولا أعلم لماذا يأخذ مني كل جميل ؟ قبل ذلك حرمني من أبي وأمي ثم خالي ثم منزلي الذي دُمّر في الزلزال ، ثم أخيراً طاقة النور لدي الشيخ طاهر.

نظرت لي زوجتي وكأنها وعيت وأدركت ما أقصد فقالت :لماذا لا تدعوا الله يُرجع لنا ابننا

- لقد دعوته كثيراً ولم أجد لذلك أثراً

- متي دعوته وكيف وأنت لا تصلي وبعيد عنه وبينك وبينه الآف الحجب.

- الحق أنني دعوته بعد أن يئست من غيره ، أخبرت الشرطة وبعلاقاتي توصلت لأناس ذوى مراكز كبيرة ولم يفعل لي أحد شيئاً.

- أدعه بخشوع وصدق يا خالد.

- أريد ذلك ولا أستطيع ، أريد أن أشعر بذلك، لكن عقلي سرعان ما يحيطه التساؤل الدائم عن وجود ذلك (الرب) وقدرته وعن كيفية سماعه لدعاء الآلاف من البشر في وقت واحد وإذا كان فعلا بمقدوره إنقاذ ابني وإرجاعه لي فلماذا لا يفعل ذلك ؟

نظرت زوجتي إليّ وهي تحرك رأسها رافضة لما أقول وقالت وعينيها تملأها الدموع:هل تتصور أن يستجيب الله لك وأنت تفكر هكذا ، كيف سيفتح لك بابه وقلبك يشك بوجوده ؟

****

(٢)

الحقيقة أن كلمات زوجتي أثرت فيّ بشدة ، بل وذكرتني بحبيبي الشيخ طاهر وكأنه تجسد في زوجتي اليوم، وقررت فعلاً أن أتوضأ وأصلي بل وعزمت على دعاء ربي بتضرع وخشوع هذه الليلة من منتصفها وحتى صلاة الفجر، فقد كنت أسمع أبي يردد دوماً أن هذه أوقات يستجيب فيها الله لعباده.

كانت الليلة ظلماء موحشة، اختفت النجوم من سمائها، ومما زاد من كآبتها هو فقداني لابني الذي كان ينير حياتي، حين أيقظني منبه الجوال الخاص بي فقمت لأجد زوجتي تدعو الله رافعة يدها للسماء وتتذلل لله بخشوع شديد والدموع تملأ عينيها وتأن بصوت متقطع لم أفهم منه سوى بعضه فكان مما تقول : (يا الله يا مجيب الدعوات، أسألك بكل اسم هو لك، سميت به نفسك أو أنزلته في كتابك، أو علمته أحداً من خلقك، أو استأثرت به في علم الغيب عندك أن ترد لي ابني فلذة كبدي، ...)

لم أتمالك نفسي من البكاء لشدة أنينها ووجدت نفسي أرفع يدي للسماء مخاطباً ربي: يا رب ، يا رب ، هل ترحم هذه الأم المكلومة.

ذهبت قاصداً الوضوء استعداداً للصلاة ومن ثم دعاء ربي ولكن أنّى لي ذلك ، فقد بدأ الشيطان يعيد إليّ وساوسه ثانية، ويدعوني للعودة للفراش وكالعادة انتصر عليّ وجعل اليأس يتملكني، فعدت منكسراً خاضعاً له إلي فراشي وعلى ما يبدو فقد صار قلبي أقسى من الحجر.

هيمن النوم عليّ وصرت معه كالأسير في المعركة ولم أصحو من نومي إلا علي صوت أذان الفجر التي قمت وأديتها رغم عدم رضائي وقناعتي عن ذلك للأسف.

جلست على سجادة الصلاة أتفكر في حالي وحال ولدي (حمزة) وكيف هو الآن، حاولت أن أشكو لربي من حالي هذا ، لكن كان الشيطان دائماً لي قرين، فلم يتركني بل وسوس إلي أن الله لن يستجيب لك مهما تدعوه لأنك يخالجك شك بوجوده، قمت من مقامي حزينا منتفضاً، حتي الآن لم أخطو أي خطوة تقربني من ربي، بل ويزداد شكي أكثر وأكثر مع إزدياد قلقي على حمزة وطائر الخيال يطير بي ليخيل لي ابني وماذا يُفعل به

الآن علي يد خاطفيه، ازداد كرهي لنفسي وتساءلت: لماذا يفعل الله بي ذلك ؟ لماذا كلما خطوت نحوه يبتعد عني ؟ لماذا لا يحبني وقد أخبرني الشيخ طاهر أن الله يحب كل عباده ؟

****

(٣)

إنهمرت الشكوك عليّ من جديد وراح الشيطان يلقي سمومه وينفثها ثانية في طريقي، وعادت لي تصوراتي المقيئمة ثانية وصرت أتساءل ...

أين الله.. كيف هو الله... ما هو الله ؟.. كيف أعبد ما لا أرى ؟ .. هل هو كملوك وحكام الدنيا ؟

ذات يوم كنت عائداً من عملي فنادني رجل مسكين علي جانب الطريق باسمي فلما ذهبت إليه طلب إحساناً وإذا بصوته يعلو بالقرآن فقال { أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ الْحَقِّ وَلَا يَكُونُوا كَالَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِن قَبْلُ فَطَالَ عَلَيْهِمُ الْأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ ۖ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَاسِقُونَ } سورة الحديد الآية :١٦)

نظرت إليه عقب سماعي هذه الآية التي لم تخترق أذني فقط بل ووصلت إلي أبواب قلبي ، أنطلقتا في الطرقات هائماً تائهاً ليس بحثاً عن حمزة ابني ، بل بحثاً عن نفسي، لا أعرف أين أذهب، ولا أعرف بمن

أستعين وفي منتصف الشارع وجدت نفسي أنحني لأضع جبهتي علي الأرض ساجداً لله ...!!!

إندهش كل من في الشارع ، ولم أبالي بذلك ، بل ظللت أذكر قول السائل { أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ الْحَقِّ } وظللت أرد : آن يا رب ... آن يا رب ..... آن يا رب

رفعت رأسي من على الأرض والجميع يرمقني بسهام نظره، وسألت نفسي لماذا لا أدعو الله الآن وأنا في تلك الحالة الإيمانية ؟ لما لا أرجوه الآن قبل أن تسيطر وساوس الشيطان علي صفحات قلبي ؟ جلست على جانب الطريق أدعوه (يا رب أعد لي أبني الضائع ومعه نفسي التائهة) عدت إلى البيت وأنا متيقن أن الله سيستجيب لي ، وبأنني سأسمع خبراً مفرحاً، دخلت البيت فإذا بي أجد زوجتي تخبرني بوجود ضيف في انتظاري في غرفة الجلوس توجهت نحو الغرفة وطرقت الباب بهدوء وأنا أتساءل هل استجاب الله لي وأرسل من يعيد لي ابني الوحيد؟ وما أن فتحت باب الغرفة حتي وجدته إنه هو، نعم هو ، يا الله ... كم طال بعده والصبر علي فراقة كاد يقتلني، والأمل بلقاءة كان هو ما يبقيني متحملاً، إنه النور الذي أضاء

طريقي إنه الأمل حيث كان القنوط، إنه الشيخ طاهر أبو أحمد ، تري هل هو حلم أم حقيقة، هل فعلاً الشيخ (طاهر) أمامي ، كان قلبي يحن اليه حنين فراشة لرياحين الربيع، كانت فرحتي لا توصف وغمرت السادة كُلّي فالرجل منذ أن تركني وأنا لم أعد أرى للدنيا طعما ولا لأيامي لونا، لقد اشتقت إليه اشتياق الإبن لرؤية أبيه بعد سنوات من الفراق، كنت في غيابه جسد بلا روح وها قد عادت روحي من جديد.

****

(٤)

بعد تناول الغداء جلست مع الشيخ نحتسي القهوة، وأنا أنظر إليه وعيني تتمعن في وجهة، ثم نظر إليّ قائلاً :

- كيف حالك يا خالد

- بخير يا شيخ طاهر (طالما رأيتك)

- وكيف حالك مع الله

- للأسف كموج البحر يتمدد ويعود للانكماش ثانية.

ساد الصمت من جديد وكأن الشيخ لم يعد لديه ما يقوله ثم نظر إلي قائلاً:يا خالد إن شاء الله سيرد الله لك ابنك قريباً ، فأدعُ ربك مخلصاً.

أثار كلام الشيخ بعضاً من التساؤلات التي لا تزال مكنونة في صدري والتي كثيراً ما كانت تتحول إلى شكوك في ديني حين لا أجد لها جواباً شافياً لذلك لم أتردد في قولي له:إذا كان الله يشاء وأنت تشاء وأنا أشاء ثم في النهاية لا يتم إلا ما يشاء الله ، إذن ما الفائدة في الدعاء والسعي لتحقيق ما أريد ؟

أطرق قليلاً ثم قال:حينما يعود (ابنك) إن شاء الله سالماً ثم يطلب منك شراء لعبة له ولتكن سيارة بالريموت مثلا فماذا سيكون رد فعلك ؟

- ممكن أن أشتريها له وممكن لا.

- إذن ابنك شاء تلك اللعبة وسعى في الحصول عليها وطلبها منك ولكن مشيئته هذه لن تتحقق إلا إذا شئت أنت صح أم لا ؟

- تمام يا شيخ.

- وهل يتحقق طلبه لولا أنه سعى لذلك وأصر عليه ؟

- بالطبع كلا.

- والآن يا خالد فلتعلم أن مشيئة الإنسان لها دور في تحقيق الأمور رغم أن مشيئة الله هي الحاكمة في كل شيء

نظرت إليه قائلاً: أتدري.. لقد أجبت عن سؤال يشغل عقلي منذ سنوات بكلمات موجزة منك بوركت يا شيخ طاهر. أردت الاستمرار في حديثي معه لكنه سبقني قائلاً :عذراً يا خالد عليّ العودة لبيتي الآن ، وللحديث بقية إن كان في العمر بقية.

أجل لقد عاد الشيخ (طاهر) فقد كان بالنسبة لي شمعة انطفأت في أوائل طريقي المظلم قبل أعوام ، أجل لقد عاد من جديد، تيقنت أنه الوحيد القادر علي إضاءة الطريق لي مرة أخري، لقد عاد ثانية ليرافقني في عالم الدنيا، انطلقت بسيارتي إلى قرية الشيخ وفي الطريق لمنزله وجدته يساعد بعضا من عمال البناء في منزل لأحد جيرانه، كان يعمل بنشاط عجيب رغم أشعة الشمس الحارقة، توقفت بسيارتي أراقبه ، فرأيته يبتسم لهذا العامل ويوجه الأخر، وينادي في الجميع أن يوحدوا الله ، بل وكان يمسك بيده أدوات العمل ليستخدمها بنفسه ويرشد العاملين لكيفية استخدامها الاستخدام الصحيح ومع كل ذلك كان وجهة مشرقاً كالقمر لا يبالي بحرارة الشمس، ولا يتكبر علي من هم دونه رغم فارق التعليم والمكانة الإجتماعية ، بل كان كل همه نشر البسمة بين كل من حوله هنا وهناك.

يبدو أن الشيخ قد رآني فإلتفت يودع العمال يميناً ويساراً رافعاً يُمناه لأعلى مسلماً عليهم، ثم أقبل نحوي، وقبل أن يتكلم فتحت له باب السيارة طالباً منه أن نتحرك سوياً لأمر هام، أبدي الرجل موافقته وانطلقنا نشق الطريق الزراعي والذي كان لا يخلو من منعطفات بين الحين والآخر، وأثناء

ذلك كان الصمت يرافقنا حتي قرر الرجل كسر حاجز الصمت بسؤالي: هل من جديد في أمر ابنك حمزة ؟

- لا والله للأسف يا شيخ.

- سيعود سالماً إن شاء الله .

تمعنت في الطريق الذي سلكناه فرأيته يكاد ينتهي فقررت أن أعرض عليه زبدة ما يدور بخلدي

- قل لي يا شيخ بالله عليك، لماذا أدعو الله فلا يستجيب لي، لماذا أذهب إليه فيبتعد عني، لماذا أطرق بابه فلا يفتحه لي ؟؟؟ أطرق بابه فلا يفتحه لي؟؟

التفت لي الرجل ثم قال: إذا أردت الذهاب لبيت طاهر وقصدت بابه، لكنك طرقت باب جمال مثلا، هل تتوقع أن يفتح لك طاهر؟

- كلا

- وهل ل ناديت (طاهر) عند بيت جمال هل سيجيبك طاهر.

- كلا : طبعا.

- كذلك الله لا(ولله المثل الأعلي) أنت إلي الآن لم تعرف الله ولم تطرق بابه ولم تتقرب منه بل طرقت أبوابا أخري ظنا منك أنه هو، لكنه ليس هو.

- لم أفهم يا شيخ مل تقصده.

- أنك تدعوا الله وأنت أصلا تشك بوجوده، تدعوه وتتخيل صفاته كصفاتنا أو جسمه كأجسامنا، أو حياته كحياتنا يتحكم بها الزمان والمكان يا خالد إن الله عز وجل ليس فقط أبصارنا لا تدركه، بل حتي أوهامنا وخيالاتنا وتصوراتنا لا تدركه لأنه (ليس كمثله شيء) وكل تصور يأتي ببالك فالله بخلاف ذلك وهو السميع البصير، وهو الواحد الأحد الفرد الصمد، هو أعظم من أن يصفه الواصفون.

****

(٥)

وجدت نفسي أسأل الشيخ هذا السؤال: أرجو يا شيخ، هل ينفعني لو بحثت عن ابني الضائع ؟ ألا يجب علي الرضا بقضاء الله تعالي والصبر لأن النتيجة حتما محسومة في قدر الله وهي جارية علينا حتما سواء فعلنا أن لا؟

أطرق الشيخ قليلا ثم قال:ربك لما خلق الكون يا خالد خلق معه نواميس وأنظمة، منها أن لكل معلول علة، ولكل حادثة سبب وهذا الناموس هو أساس قضاء الله تعالى،

- وهل هذا لا ينقاض القضاء والقدر ؟

- لا طبعا فالله تعالى بقدرته وعلمه الأزلي قدر الأسباب ومسبباتها ما هي معروفة لنا أو مخفية وحينما يقضي الله لعباده ما قدره لهم طبقا لناموسه الذي وضعه فهذا يسمي القضاء.

شعر الشيخ بأن ما قاله لم يصلني فقال: يمكن تشبيه القضاء والقدر بمعلم مثلا في احدى المدارس دخل فصلا في بداية العام فأعلم طلابه بلائحة نظام وضمنها عقوبات علي بعض الأخطاء وثواب علي أعمال أخري

حسنة، وبين في هذه اللائحة مقدار وشدة الثواب والعقاب للطالب المحسن والمسيء، فمن يفعل كذا يحصل علي كذا، ومن يفعل كذا يحصل علي كذا.

وهنا نقول أن المعلم قدر الجزاء لطلابه علي ضوء أفعالهم وهذا هو ما نسميه القدر، وحينما يفعل أحد الطلاب فعلا خاطئا يخالف القانون الذي وضعه المعلم له، ثم يطبق المعلم عليه الجزاء فهذا هو القضاء.

- بمنطق كلامك يا شيخ القدر يأتي أولا ثم القضاء لكننا نقول دائما القضاء ثم القدر.

- صحيح لكن الصواب أن نقول القدر والقضاء.

فجأة رن هاتفي المحمول..

- ألو. من معي ؟

- هذا لا يهم، المهم أن ابنك في حوزتنا.

- وما المطلوب ؟

- دفع ملبون جنيه مقابل حياة ولدك.

ثم أغلق الاتصال مختتما كلامه بأنه سيتصل بي لاحقا للاتفاق على مكان وزمان التسليم مهددا بقتل ابني حال المماطلة أو تبليغ الشرطة.

أصبت بنكسة جديدة وأخبرت الشيخ بما جرى فأطرق قليلا ثم قال: لا حول لا قوة إلا بالله العظيم،

اكتفي الشيخ بهذه الجملة وبدا من سكوته أنه يفكر في أمر ما، ثم طلب مني التوقف ونزل من السيارة يترجل ماشيا على الطريق ثم بعد دقائق اقترب مني قائلا: "لا تقلق سيعود ابنك بأمر الله".

ازداد أملي في لقاء ولدي وتملكني الشوق، وأصبحت صورته لا تفارقني، وروحه لا تغادر فكري وعقلي، وحديثه لا يبتعد عني بل يلازمني.

****

(الفصل الخامس)

نعم لا تحصى

عدت إلي منزلي، وحينما فتحت لي زوجتي الباب حاولت مقابلتها بوجه بشوش تعلوه ابتسامة حتى ولو كانت مصطنعة لعلي أنسيها قليلا مما هي فيه، لكنني رأيتها شاحبة الوجه مضطربة جدا فقلت لها: أراك شاحبة الوجه شاردة الذهن مضطربة فهل من جديد ؟

أجابتني والدموع تنهمر من عينها: نعم، منذ ساعة اتصل بي الخاطفون وهددوني بقتل حمزة لو أبلغنا الشرطة أو تراخينا في دفع مبلغ مليون جنيه لهم.

كانت زوجتي تقول لي ذلك وتنظر إلي عيني علها تستشف منهما مدى قبولي أو رفضي للعرض. ثم أردفت قائلة بسرعة حتي لا تعطي لي أي مجال للتفكير:

- مال الدنيا كله لا قيمة له مقابل حياة (حمزة).

طبعا أنا أقدر تماما عاطفتها كأم تريد رجوع ابنها مهما كلفها الأمر في سبيل ذلك، فأجبتها: أكيد يا حبيبتي، حمزة أغلى عندنا من كل كنوز الأرض، ولعلمك فقد اتصل بي هؤلاء الكلاب اليوم وأنا مع الشيخ طاهر وعرضوا نفس العرض، ويبدوا أنهم يريدون الضغط علينا لنوافق، فاتصلوا بك أيضا، ولكن هل أخبروك بتفاصيل التسليم والموعد ؟

- نعم طلبوا مني إخبارك بإحضار المبلغ في شنطة سوداء وأن تستقل سيارتك وتتوجه إليهم في منطقة (الحطاب).

كانت منطقة الحطاب هذه منطقة مخيفة جدا يتجنب الكثيرين الاقتراب منها فأصبحت مهجورة وكانت مرعبة لدرجة أن الكثير من أهالي المناطق المجاورة لها نسجوا لها الكثير من القصص المرعبة عن الأشباح التي تسكنها وتظهر لمن يقترب منها ليلا.

كانت منطقة غير قابلة لأن يسكنها إنسان، لذلك قامت الحيوانات البرية باحتلالها، واستولت عليها الطبيعة فغطتها بالطحالب الخضراء نتيجة برك المياه المتناثرة فيها.

أطرقت ثوان ثم قلت: المبلغ كبير وسيكون له تأثير كبير علي حياتنا يما بعد فردت غاضبة: المال أم ولدك ؟

فسكت وقلت في نفسي، لن أفعل شيء قبل مقابلة الشيخ طاهر.

****

(٢)

اتصلت بالشيخ طاهر وأخبرته أنني بحاجة ملحة للقائه اليوم تم اللقاء ومن سوء أدبي للأسف معه قلت له:

- لماذا يفعل الله بي ذلك ؟

لماذا يجعلني أدفع أغلب ما جمعته في سنين ؟

- لماذا يجعلني أعطي هؤلاء الكلاب الخاطفين رزقي ومالي ليعاودا الكرة مع غيري ثانية ؟

أطرق الشيخ قليلا ثم قال: هب أن شخصا أعطاك بيتا هدية بكل أثاثه وفوقه سيارة هدية أيضا، ووفر لك كل وسائل الدعة والراحة كل ذلك بلا مقابل منك، ثم بعد سنوات، طلب منك الثلاجة فقط الثلاجة، هل تعترض عليه وتدعي أن هذا ظلم لك ؟

- لا طبعا وليس من قبيل الاحترام والتقدير أبدا.

- إذن يا خالد ليس من الاحترام أو الأخلاق أن تعترض علي رب العالمين وأنت غارقا من رأسك إلي إخمص قدميك في مننه وعطاياه.

- يا شيخ سيضيع كل مالي وتقول لي عطاياه.

- نعم عطاياه: قل لي من أعطاك عينيك وعقلك اللذان فكرت ونظرت بهما لتصير مهندسا مشهورا، وكسبت أموالا ورزقا وفيرا، من الذي أعطاك يدين ورجلين تتحرك بهما لتكسب المال؟ ، من الذي أعطاك الصحة والعافية ؟ أليس هو الله ؟!

- بلي

- إذن لازالت عطاياه تلجمك من ساسك لراسك، ووهبك إياها دون مقابل منك أو أجر ؟

- بالعكس كان هناك مقابل.

- وما هو ؟

- فرض علي صلوات وصيام وزكاة وصدقات، أليس هذا مقابل تلك العطايا ؟

نظر إلي الشيخ وقد علا الغضب وجهه وربما هذه أول مرة أري الشيخ غاضبا ثم قال:حتي هذه الأمور من العبادات الله ليس بحاجة إليها، بل أنت أيها المسكين.

- وكيف ذلك ؟

- هذه العبارات ترتقي بك وبحياتك إلي مقام الإنسانية لأنه لولاها ستهبط إلي الدونية وربما الحيوانية، فتعيش لتأكل وتشرب وتنام فقط.

فكرت فيما قاله الشيخ وقلت في نفسي:

- بالفعل أخذ الله مني نعمة واحدة وهي ولدي وفي المقابل سيرجعه لي مقابل نعمة أخري هو أيضا من أعطاني إياها وهي المال !!!

نظرت إلي الشيخ قائلا:كل كلامك صح جدا يا شيخ طاهر.

ساد الصمت قليلا ثم سألت الشيخ ماذا أفعل مع هؤلاء الكلاب خاطفي ولدي ؟

رد الشيخ سنذهب إليهم بالمال ونأخذ بالأسباب وإن شاء الله يعود ولك بخير.

قلت له:يا شيخ أنت قلت سنذهب (بنون الجمع) هل تقصد أنك ستأتي معي ؟

- نعم بكل تأكيد.

- ولكنني لا أريد أن أعرضك للخطر في أمر كهذا، هذا الأمر يخصني وأنا من سأتحمل عواقبه.

رفض الشيخ رفضا قاطعا ذهابي وحدي مقسما بالله ليأتين معي أي كانت العواقب.

****

(٣)

عدت إلي البيت مسرعا ولما فتحت الباب ودخلت ناديت زوجتي فلم ترد علي، كررت النداء أكثر من مرة ولا مجيب، فدخلت الغرفة، ولكنني فوجئت بزوجتي ملقاة على أرض الغرفة ولا حراك لها.

أسرعت إليها ووضعتها فوق سريرها وذهبت مسرعا لإحضار كوب ماء وقمت برش القليل منه على خديها لإفاقتها، فتحت فمها لأتأكد من عدم وجود ما يسد مجرى الممرات الهوائية.

فجأة بدأت تتحرك وسمعتها تهمهم بصوت خافت لم أفهم منه شيئا.

كانت زوجتي شاحبة الوجه، ولا تزال تتصبب عرقا غزيرا وأطرافها شديدة البرودة.

وبعد مدة وجيزة بدأت تستعيد كامل وعيها لتنظر إلي مستفسرة مني عما أنوي فعله، فطمأنتها بأنني سأجهز المبلغ خلال يومين لأعطيه لهم وأعود باني حمزة إن شاء الله.

ركبت السيارة مع الشيخ طاهر حاملين معنا المبلغ المطلوب، وانطلقنا مسافة ثم وجدت نفسي أسأل الشيخ سؤالا: يا شيخ كيف نقول بأن الله رحمن ورحيم وغفور وودود وهو يترك هؤلاء المجرمون بكل شرورهم ليعيشوا في الأرض فسادا؟، إذا كان الله كله رحمة وخير فلماذا سمح لهؤلاء بالغلبة علي الصالحين؟

ابتسم الشيخ (طاهر) قائلا:يا خالد إن الله كله خير وكله كرم وكله رحمة، ربك لا يأمر إلا بكل عدل وعفو وإحسان.

- فلماذا ترك الخاطف يخطف والظالم يظلم والسارق يسرق.

- لأن الله بحكمته خلقنا أحرارا وترك لنا كامل الاختيار بين الطاعة والمعصية.

- ألم يكن الله قادرا علي جعل جميع عباده أخيارا.

- بلي قادر ولكن معنى ذلك هو إجبار عباده كلهم علي الطاعة يعد قهرا ومقتضي ذلك هو سلب حرية الاختيار وبالتأكيد هذا ليس في دستور وناموس الله في كونه، حتي إن الشر نفسه قد يكون دليلك للخير.

- وكيف يكون الشر دليل للخير ؟

- الشر يا بني يجعل الإنسان يعرف قدر الخير، فالمرض يخلق وقاية كما التعب يولد الراحة، والألم يربي الجلادة.

ألا تعلم يا بني أن من سم الثعبان يكون الدواء، ومن الميكروبات تصنع اللقاحات العلاجية، يا خالد الله قادر متحكم، خلق كل شيء بحكمة بالغة، لا يغرب عنه مثقال ذرة في الأرض ولا في السماء.

****

(٤)

وصلنا للمكان المتفق عليه، كان المكان مظلم، موغل في الوحشة لا أكاد أري باطن كفي لعدم وجود منفذ نور يتيح للنور التسلل إلينا مكان مخيف وكأنه صورة مصغرة من الجحيم، وبينما نحن علي هذا الحال إذا بي ألمح في الظلام وكأنها أشباح تقترب منا، وإذا بضوء مفاجئ يشع في وجوهنا من كشاف أحدهم، فإذا بثلاث رجال ملثمون يحملون أسلحة، أحدهما يحمل بندقية رشاش والآخران كل منهما بيده مسدسا. أشهر المجرمون الأسلحة في وجوهنا ثم طلب أحدهم من الشيخ النزول من السيارة والانتقال للمقعد الخلفي ثم ركب هذا (العتل) ضخم البنية بجواري والشيخ في الخلف يتوسط المجرمان الآخران.

وبصوت أجش مرعب قال لي من بجواري، انطلق بلا حديث وأي مخالفة لذلك سأفرغ رصاص مسدسي في جانبك، لم أملك سوي الانصياع له فليس لي بديل آخر.

انطلقنا بالسيارة حيث يأمرني هذا (المجرم)، وظللنا علي هذه الحال حوالي (نصف ساعة) كانت كافية لتكون في منتصف الطريق المؤدي للمدينة، وقبل دخول المدينة طلب مني الإنحراف بالسيارة يسارا عند مدخل أحد المصانع المهجورة، وبعد دقائق ظهر أمامنا بيت كبير حوله سور ممتد لمسافة كبيرة، كان هذا البيت هو الوحيد في هذه المنطقة.

طلب مني الرجل التوقف عند الباب الرئيسي لحديقة البيت وخرج من السيارة ثم أخرج هاتفه المملوك وعلي ما يبدو كان يتصل بأحد أفراد العصابة داخل البيت ليعلمه بوصولنا.

لمحت شخصا مقنعا يقترب مني طالبا مني النزول من السيارة ومعي الشيخ طاهر (وحقيبة المال)، ثم أمسك أحدهم يدي من الخلف وأغلق عيني بقطعة قماش سوداء اللون، فلم أعد أري حتي سواد الليل كل ذلك وكان عندي أمل كبير في أنني سأعود بابني حمزة وأن هؤلاء سيوفون بعهدهم معي كل هذه الأفكار لم تفارقني لحظة وأنا أسير أتحسس موضع قدمي وهم يسوقنني للداخل شعرت أنني أسير في ممر كبير به أبواب متعددة، أحسست بذلك من خلال صوت الأبواب وهي تفتح وتغلق أكثر

من مرة، كذلك من خلال حديثهم فيما بينهم، حيث كانوا علي ما يبدوا لم يستقروا بعد علي المكان الذي يجب أن أكون فيه لحين إتمام الصفقة.

أخيرا ألقوا بي وأنا مقيد اليدين معصوب العينين في غرفة ضيقة وجدت نفسي أصرخ فيهم: ألم تأخذوا المال الذي طلبتم أنا لا أريد منكم سوى ابني فقط أجابني أحدهم وهو يضحك بسخرية:

"الجزار جايلك بعد شوية وقتلك عنده أهون من قتل ذبابة ويظهر إن موضوعك أكبر من عيل وفلوس"قال هذا وقد علت صوت قهقهاته وتركني وغادر.

أحسست بأنني ميت وأن انتقالي من الدنيا إلى الآخرة صار وشيكا.

****

(٥)

تملكني رعب شديد، لأنني وحتى هذه اللحظة الأخيرة من حياتي لم أكن عرفت ربي حق معرفته، شعرت بأنني خسرت كل شيء، ابني وزوجتي ومالي، والشيخ طاهر وآخرتي أيضا.

الويل لي، الويل لي، أفنيت عمري غافلا جاهلا إلا أن حان وقت الرحيل ولقاء ديان السماوات والأرض.

لم تمض ساعة حتي سمعت باب الغرفة يُفتح وأحدهم ينادي ضعه معه هنا ثم قال ساخرا: يسلوا بعض قبل ما يموتوا،

ناديت:من هنا ؟ هل أحد معي بالغرفة ؟

فإذا بصوته الذي ألفته يرد علي:الحمد لله علي سلامتك يا خالد.

– وأنا أحمد الله على سلامتك يا شيخ طاهر.

دار بيننا حديث سألته فيه عما حدث له خلال تلك الساعة.

الحقيقة أن لقاء الشيخ ثانية لا يعادل بأثمان ثم قلت له:لقد هددوا بقتلي يا شيخ طاهر.

فرد علي بهدوءه المعتاد:أعلم أن الأمر كله بيد الله ثم تلا قوله تعالي:

(إن الله عنده علم الساعة وينزل الغيث ويعلم ما في الأرحام، وما تدري نفس ماذا تكسب غدا، وما تدري نفس بأي أرض تموت، إن الله عليم خبير) (سورة لقمان : ٣٤)

ثم اتبع كلامه:لا تقلق فأمور الله تجري بمقادير.

- ولكنني تركت زوجتي بلا مال بعد أن أخذ هؤلاء المجرمون كل ما أملك تقريبا، فمن لها بعدي؟

نظر إلي وهو متأثر من كلامي ثم قال:إن الله هو الرزاق ذو القوة المتين.

- ولكن يا شيخ أن أخاف من الموت ألا تخاف أنت أيضا منه ؟

أجابني الرجل بكل ثقة: إذا كنت تحب أحدا ثم علمت أنك ستقابله بعد قليل فكيف سيكون حالك ؟

- أطير فرحا للقائه.

- ومن يحب ربه يتمني لقائه.

= ولكنني حتى الآن لا أشعر بذلك الحب الذي يتملكك.

- يا خالد إن محبة الله فرض علينا وشرط من شروط الإيمان، وتستلزم هذه المحبة طاعة المحبوب وفعل ما يطلبه منك وترك ما ينهاك عنه، وحب الله يكون بمعرفة أسمائه عز وجل وصفاته، ومعرفة معانيها وتدبرها.

أحس الشيخ بعدم وصول كلامه لي فأردف قائلا: لو أخبر أحد ما من أصدقائك بأن تذهب معه لزيارة شخص اسمه (أيمن) فهل ستتشوق للقاء هذا ؟

- لا طبعا.

- طيب لو ذكر لك صفات أيمن هذا ووصف لك كرمه وجماله وجوده وعطاؤه وابتسامته في وجه من يقابله وعذوبة كلامه وعدل في حكمه وقوله الحق وغيرها من محاسن الصفات، هل ستشتاق للقائه ؟

- بكل تأكيد، فشخص كهذا يتمناه الجميع ويتمنوا لقاؤه.

- إذن ما الذي غير المعادلة عندك الآن ؟

- معرفته حق المعرفة.

- كذلك رب العالمين وله المثل الأعلى.

ثم تابع الشيخ قوله:أتذكر يا خالد بداية معرفتي بك حين طلبت منك أولا معرفة ربك، يا خالد أنت تتخوف من لقاء ربك لأنك ظلمت نفسك بعدم معرفة ربك وهذا قد حملك ذنوب كثيرة تخشاها، لذا أنت تخشى حسابه وعدله.

وضعت رأسي بين رجلي خجلا من ربي وانهمرت في البكاء. ولم يهدئ من روعي سوى تلاوة الشيخ لآيات من كلام الله وكأنني أسمعها للمرة الأولى:

(قل يا عبادي الذين أسرفوا علي أنفسهم لا تقنطوا من رحمة الله إن الله يغفر الذنوب جميعا إنه هو الغفور الرحيم) (الزمر : ٥٣)

****

(الفصل السادس)
(في كنف المعبود)

يوم كامل قضيناه ونحن على تلك الحالة في هذا السجن، إلا أن دخل علينا السجان وخلع الأغطية التي كانت علي أعيننا، فإذا به غاضب عبوس وبلا أي مقدمات لكمني بقوة على وجهي فأرداني أرضا، ثم هم ليضرب الشيخ طاهر فأمسك الشيخ يده قائلا له:كم من المال تأخذ من المجرم الكبير حتى تفعل هذا ؟

نظر إليه المجرم بغل وحقد شديد:مش شغلك.

فتابع الشيخ قوله:يا بني أنت علي الباطل وتبيع أخرتك بدنيا غيرك، دعك من العمل مع هؤلاء المجرمون وأعدك بتوفير عمل محترم بمقابل مادي كبير، ولن أبلغ عنك الشرطة.

نظر المجرم للشيخ وأجابه ساخرا:خلص نفسك الأول وبعدين شوفلي شغل.

غادر الرجل، حتي أنه يبدو أنه قد نسي لماذا جاء أصلا ثم نظر إلي الشيخ قائلا:هذا المجرم يخاف من مجرم مثله أكثر من خوفه من الله.

ثم أتبع الشيخ كلامه قائلا:يا خالد يقول الله تعالي في سورة الغاشية: (أفلا ينظرون إلي الإبل كيف خلقت)

أتدري لما يخص الله تعالي الإبل من بين كل مخلوقاته ويجعل التفكير فيها أسبق من التأمل من السماوات والأرض والجبال ؟

- لا والله لا أدري يا شيخ.

- دعني أكشف لك ما كشفه العلم الحديث من إبداعات الخالق المذهلة في خلق الإبل والتي لا تخلو تلك الإبداعات من الآيات التي تأخذ بالعقول:

أولا: إن لعيني الجمل رموش ذات طبقتين بحيث لا تدخل الواحدة في الأخري مما يمنع دخول الرمال فيهما.

ثانيا: الجمل له أذنان صغيرتان تبرزان قليلا، يغطيهما الشعر من كل جانب ليقيهما رمال الصحراء التي تحملها الرياح، كما أن لها مقدرة علي الانثناء خلفا والالتصاق بالرأس حال هبوب العواصف.

ثالثا: قوائم الجمل طويلة وكأنها تحورت وتكيفت بإعجاز إلهي عظيم لترفع جسمه عما يثور تحته من غبار ورمال، وتساعده كذلك على إتساع الخطوة وخفة الحركة، وتنتهي تلك الأقدام بخف غليظ يضم وسائد عريضة لينة تتسع كلما داس بها الجمل علي الأرض، ومن ثم تمكنه من السير فوق رمال الصحراء، وهو ما يصعب على أي دابة سواه مما يجعله أهلا للقب "سفينة الصحراء".

رابعا: أعناق الإبل مرتفعة حتي تمكنها من تناول طعامها من نبات الأرض وقضم أوراق الأشجار العالية إذا صادفتها، كما أن هذا العنق المرتفع يساعد الجمل على النهوض بالأثقال.

خامسا: معدة الجمل ذات أربعة أوجه وله جهاز هضمي قوي جدا يستطيع هضم أي شيء خلاف الغذاء في المطاط مثلا وذلك في بعض الأماكن الجافة.

سادسا: جسم الإبل لا يفرز إلا مقدارا ضئيلا من العرق وذلك عند الضرورة بفضل قدرة جسمه على التكيف مع العيش في جو الصحراء شديد

الحرارة لأن جسم الجمل مغطي بشعر كثيف جدا مما يعمل على عزل الحرارة من الوصول للجلد لذلك لا يضطر الجمل للعرق.

استغربت جدا من حديث الشيخ فقاطعته قائلا:ما هذا يا شيخ طاهر ؟ كأنك أصبحت خبيرا في علم الحيوان أيضا !!!

تبسم وأكمل قائلا:يا خالد هذا غيض من فيض قدرة العلي الكريم، لذلك نجد الآية الكريمة: (أفلا ينظرون إلي الإبل كيف خلقت) نموذجا لما يمكن أن يؤدي إليه العلم بكافة مستوياته، وليس في نصها شيء من تلك الحقائق وإنما فيها ما هو أعظم، فيها مفتاح الوصول لتلك الحقائق العلمية، بتوجيه رائع وجميل من رب العالمين: (أفلا ينظرون إلي الإبل كيف خلقت)

****

(٢)

قال لي الشيخ بكل ثقة وهدوء أعصاب: إن شاء الله يا خالد هذا اليوم هو آخر يوم لنا هنا.

- ومن أين لك هذه الثقة يا شيخ طاهر ؟

- لأن الله علمنا التوكل عليه في كل أمورنا وأن نأخذ بالأسباب.

- وهل أخذت بالأسباب يا شيخ ؟

- نعم بكل تأكيد.

- وكيف ذلك وماذا فعلت ؟

- يا بني كما خلق الله المرض خلق الدواء وأنا اعتمدت علي الله وأحضرت الدواء.

- أي دواء تقصد ؟

سكت الشيخ ثم مد يده تحت ملابسه مخرجا من طياتها قطعة صغيرة جدا تشبه المغناطيس ثم قال لي:هذا جهاز إرسال واستقبال يتم التواصل

منه مع الشرطة عن طريق موجات مختلفة ومخططات تشفير، نعم يا بني أنا على تواصل مع الشرطة منذ فترة وقد خططنا للإيقاع بهؤلاء المجرمون.

ذهلت من كلام الشيخ، وأحسست بفرحة كبيرة تنتابني، ربما لشعوري بقرب نجاتي ونجاة ولدي من براثن هؤلاء المجرمون.

وجدت نفسي أقوم من مقامي منكبا فوق رأس الشيخ تقبيلا ودموعي تنهمر من عيني فقال الشيخ:هيا نرفع أيادينا ونتضرع لربنا بكشف الغمة عاجلا غير آجل.

ظللنا ندعو ونبتهل إلي الله حتي سمعنا الآذان، فقد حان الفجر ومر الوقت سريعا دون أن نشعر به.

وبعد الصلاة دخل علينا المجرم باليسير من الطعام، والذي يبقينه فقط على قيد الحياة.

أحسست برجفة وخفقات في قلبي وهو يفتح الباب بالطعام فشكوت ذلك للشيخ طاهر قائلا له:كيف يمكنني أن أكون مثلك أريد التخلص من الخوف والخفقات كلما سمعت صوت أحدهم يفتح الباب.

- أتريد حقا يا خالد التخلص من ذلك الخوف ؟

- نعم بكل تأكيد.

- إذن عليك تطهير قلبك من كل شيء سوى الله، وما هذا الخوف إلا نموذج للشرك الخفي والذي سببه اعتقادك أن أحدا من الممكن أن ينقص من عمرك يوما واحدا دون إرادة الله، يا خالد هل من تخاف منه من هؤلاء يملك لنفسه الموت والحياة ؟

- كلا.

- إذن هو لا يملك منح نفسه ساعة فوق عمره، فكيف يمنحها لغيره أو يحرمه إياها. ثم إن الإنسان الذي تخاف منه هو مخلوق ضعيف مثلك:

أوله نطفة مذرة

وآخره جيفة قذرة

وفيما بينهما يحمل العذرة

في هذه الأثناء دخل علينا أحد هؤلاء المجرمين، فنظرت إليه بنظرة تختلف عن كل مرة،

نعم الآن أنا لا أخاف منهم بل أصبحت أحتقرهم وأشعر بالتكبر عليهم.

يبدو أن الشيخ شعر بذلك مني فقال بصوت عالي:(من خاف الله، أخاف الله منه كل شيء)

(٣)

لم تمض دقائق حتى حدثت ضجة كبيرة جدا، أعقبها إطلاق نار كثيف هنا وهناك، وسمعنا صوت (سرينة) سيارات الشرطة التي على ما يبدو قد حاصرت المكان وطوقته من كل جانب.

كنت أتذكر لحظات الموت، وكنت متيقنا من قدومها إلي، كانت فرائصي تضطرب وخوفي يتعاظم كلما جال فكري في أمر الموت والحساب والعرض علي الديان، أحسست بيقين لا يخالطه الشك أنني حتما سأغادر، ولكن عدت أسأل نفسي وعلام الخوف؟ هل الخوف من لقاء ربي العظيم الذي عرفته حق المعرفة؟

أمسك الشيخ طاهر يدي طالبا من الخروج معه من الغرفة التي كنا محتجزين فيها، وفور اقترابنا من الباب، إذا برجل ضخم الجثة يفتحه شاهرا سلاح آلي في وجوهنا وطالبا من الخروج أمامه رافعين أيدينا لأعلى مهددا بقتلنا إن توقفنا أو فعلنا شيء غير ما نؤمر به.

قادنا المجرم إلى ممر طويل، ولأول مرة صوت بكاء ابني حمزة يرن في أذني، ورغم زخات الرصاص المتبادلة بين الشرطة والأشرار، كان صوت ابني يزداد وضوحا كلما تقدمنا خطوة بعد خطوة، كانت دقات قلبي تزداد كلما اقتربنا من مصدر الصوت حق هدأت وسكنت رغم إطلاق النيران الكثيف من حولنا، نعم هدأت حين عانقته وقبلته وضممته إلي صدري، آه يا بني، آه يا بني، آه يا بني حمزة نور عيني ومهجة قلبي وحشاشة فؤادي، وريحان خاطري وخيوط حبي.

اختلطت دموعي بدموعه، ولم أكن أسمع منه غير كلمة بابا، والبكاء يخنقه من هول ما رأي.

جمعنا هذا السجان في غرفة واحدة ويبدو أنهم قرروا أخذنا رهائن مقابل وقف اقتحام قوات الشرطة لهذا الوكر النجس، الذي يفرق بين الابن وأبيه، وبين الحبيب وحبيبه.

وجدتني ألتفت إلى السجان الذي وقف عند الباب ممسكا بسلاحه وأقول له:تعسا لهذا المال الذي من أجله تقتلوني وتفرقون بين الأب وفلذة كبده.

لم يرق قلب هذا المجرم لكلامي معه، إذا كان قلبه كالحجارة بل أشد قسوة منها، فقال لي:

اسكت وإلا أفرغت هذا السلاح في رأسك أنت وولدك وهذا الشيخ البائس.

تركته وتوجهت لولدي وضممته إلي صدري، ورأيت دموعه وقد ملأت خده، وتجري جريان السيل على وجهه.

هدأ قليلا بعد أن ضممته لصدري مر أخري ثم قال: أبي لقد اشتقت لأمي هل ستأخذني إليها ؟

- نعم يا حبيبي، إن شاء الله ستذهب إليها.

ولم أكمل حديثي حتي وجدت أفراد الشرطة حولنا في كل مكان، ولم يجد المجرم الذي كان معنا من بد سوي إلقاء السلاح وتسليم نفسه.

****

(٤)

وفي القسم تجمعنا، وما أجمله من تجمع، لم يتمالك الحاضرين أنفسهم من البكاء عند لقاء حمزة بأمه، لقاء أم بفلذة كبدها بعدما كان يجول بخاطرها أنها لن تراه ثانية.

ما أجمل هذا اللقاء بعد الفراق وبعد سيل اللهفة والأشواق، انتظرت الأم بحرقة وما كان جزاء هذا الانتظار إلا فرحة طاغية وثوابا عظيما، إنها لحظة ترسم أحداثها في لوحة ربيع العمر، يزداد فيها نبض القلب، وكل ما يقال لا يصف ما يروى من أحاسيس، ما أجمله من لقاء، يريح النفس المتعبة ويجلو الفؤاد، لحظات مشرقة ذات نسائم منعشة وأصوات بكاء الفرحة فيه كزقزقة العصافير علي الأفنان ،لقاء لملم الجراح، وبقدر ما كان ألم الغياب والفراق، كان اللقاء أروع وأجمل وشفاء من الآلام.

انتاب الجميع فرحة كبيرة لا مثيل لها..

- الشرطة فرحت بأداء مهمتها على أكمل وجه، فقد حرروا المخطوفين وألقوا القبض على العصابة الإجرامية التي نشرت الرعب

والفزع في المجتمع.

- الشيخ طاهر فرح بكونه ساهم في تفريج همي وغمي كما كان يردد دوما حديث النبي صلى الله عليه وسلم (المسلم أخو المسلم، لا يظلمه، ولا يسلمه ومن كان في حاجة أخية، كان الله في حاجته، ومن فرج عن مسلم كربة فرج الله عنه كربة من كرب يوم القيامة، ومن ستر مسلما ستره الله يوم القيامة) (متفق عليه)

وقبل ذلك أرشدني وهداني لما كنت أبحث عنه سنوات عديدة، نعم أخذ بيدي إليه، إلي ربي، إلي حبيبي والنور الذي صار يملأ فؤادي وكياني ويجذبني بشدة إليه، نعم أوصلني الشيخ إلي ربي مؤنسي في خلواتي ومحبوبي الذي صرت أؤثره علي روحي ومالي وأهلي وكل ما أملك.

نعم أوصلني إلي محبوبي الذي صار يتملك في فؤادي جوي يقطع علائق كبدي ولهيب حبه ملأ سائر بنياني.

نعم عرفته وأحببته حب كبر في قلبي وأمامه صغر كل شيء، فإني به مالك للدنيا وبدونه من التائهين، قد يجفوا حبيب ويبعد قريب ويموت حي ويفني مال وتزول صحة، ولا يبقي إلا الحبيب المعشوق ،ومن فيض عشقه

غاص فؤادي في شذرات نوره وجماله ،الأبدي الحي القيوم، سامع الصوت الخفي وعالم القلب النقي، بيده الأمر والتصريف، أعرف المعارف لا يحتاج إلى تعريفـ عظيم الجاه سعد من ناجاه، وفاز من تولاه، واطمئن من لا يرجو سواه.

نعم عرفته وأحببته وأنست به فاستوحشت من غيره، وافتقرت إليه فأغناني عن سائر خلقه، وتذللت إليه فبت عزيزا في نفسي ولا أخشى غيره.

ولما لا وهو ربي وخالقي وبديع السماوات والأرض، من لا يخفى عليه شيء في الأرض ولا في السماء.

وإلى أن نلتقي ، هذا هو ديدني

(وإن ربك لذو فضل علي الناس ولكن أكثرهم لا يشكرون (٧٣) وإن ربك ليعلم ما تكن صدورهم وما يعلنون (٧٤) وما من غائبة في السماء والأرض إلا في كتاب مبين (٧٥))

تمت بحمد الله